

المحاضرة الرابعة والعشرون

مراحل التفسير ، المطلب الاول :مرحلة التكوين ، المطلب الثاني : مرحلة التأصيل، المطلب الثالث : مرحلة التجديد

مرحلة التكوين

تمهيد

" من البديهيات ان كل شيء في الوجود لا يكتمل الا اذا مر بمراحل معينة واطوار متتالية ،وتلك سنة من سنن الله في الاشياء جميعا قال تعالى: (فَلَنْ نَحْدِ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ نَحْدِ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً) ، ويصدق على العلوم ما يصدق على الاشياء ، فلم يعرف ان هنالك علما من العلوم وجد كاملا هكذا فجأة ،وانما كل علم مر بمراحل وتطورت حتى صار علما له اصوله واركانه التي يقوم عليها ، ومن العلوم علم التفسير ، هذا العلم الذي شهد تطورات منذ نزول الآيات الاولى من كتاب الله الكريم وحتى يوم الناس هذا ، فبدأ بمرحلة المهد ثم الطفولة ، وتطورت به المراحل حتى استوى على سوقه ، وصار له اصوله واركانه " "وجدير بمن يتناول علم التفسير ان يقف عند هذه المراحل والتطورات ، لأنها تطورت متلاحقة ومتعاقبة في ان واحد ، فلا يمكن فصل مرحلة عن مرحلة ، او اعتماد مرحلة دون اخرى ، والا فقد هذا العلم ركنا من اركانه ، واصلا من اصوله ، ولوقع المفسر في اخطاء جسيمة ، وادخل في تفسيره للآيات غير مراد الله ومقصوده ، ومن ثم فعلى المفسر ان يراعي كل المراحل ، ولا يعتمد مرحلة دون اخرى ، ويراعي في المقام الاول مرحلة التفسير في عهد النبوة ، لأنها الاساس الذي يبنى عليه ما بعده ، ولان النبي هو اعلم الناس بالقران "

وفيما يلي عرض لاهم المراحل التي مر بها علم التفسير وعلى النحو الاتي :

المرحلة الاولى :مرحلة التفسير في عهد النبي الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم

مرحلة التفسير في عهد النبي هي من اهم المراحل التي مر بها علم التفسير وذلك لأنها النواة الاولى لهذا العلم الجليل ، ولا يمكن لنا ان نفهم المراحل اللاحقة الا من خلال معرفة هذه المرحلة اي مرحلة " التفسير في عهد النبي الكريم " والوقوف على ما حوته تلك المرحلة من سمات وخصائص ، ومما لا شك فيه ان البدايات الاولى للتفسير في عهد النبي الكريم كانت منذ نزول الآيات الاولى على قلب النبي الكريم فقد امر الله تعالى نبيه الكريم بتفسير القران وشرح آياته وبيان معانيه فقال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ، وقال ايضا : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ، "فمقتضى هذا التكليف الالهي الذي تضمنته هاتان الآيتان استجاب الرسول لنداء ربه ، وشرع يوضح احكام القران للناس وبهذا يعد الرسول اول مفسر للكتاب الكريم وعلى يديه الكريمتين بدأت نشأة التفسير "

والقران الكريم كما هو معلوم "نزل بلسان عربي مبين ، وعلى اساليب بلاغة العرب وبيانهم ، فكانوا يفهمونه ، ويدركون اغراضه ومرامييه ، وان تفاوتوا في الفهم والادراك ، تبعا لاختلاف درجاتهم العلمية ، ومواهبهم العقلية " " وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذهبهم ويتواردون عليها ، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروبا من الوصف ، وأنواعا من الحكم ، وطائفة من

الأخبار والأنساب، وقليلًا مما يجري هذا المجرى، وكان كلامهم مشتقًا على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية. والإيجاز والإطناب. وجرى على سنة الله تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيَتَّبِعَهُمْ﴾ فالفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظًا قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: إنها عربية مجتة، وأخذت من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال. ومن قائل: إنها عربية مجتة، غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًا. استعمال القرآن في أسلوبه الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والأطناب، وعلى نمط العرب في كلامهم. غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي افتتت بها في غير مذاهمهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقًا لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم علم

فالعرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن الكريم قال ابن قتيبة (ت: ٢٧٦) "إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض" ومعنى هذا أن هناك آيات تشكل معانيها على الصحابة وكان الصحابة، رضوان الله عليهم يسألون الرسول ليوضح لهم موضع الاشكال فمن هنا بذرت البذور الأولى لعلم التفسير

ومما يؤكد اختلاف العرب في فهم القرآن قول مسروق "عَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ : لَقَدْ جَالَسْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدْتُهُمْ كَالِإِخَادِ ، فَالِإِخَادُ يُرْوِي الرَّجُلَ ، وَالِإِخَادُ يُرْوِي الرَّجُلَيْنِ ، وَالِإِخَادُ يُرْوِي الْعَشْرَةَ ، وَالِإِخَادُ يُرْوِي الْمِائَةَ ، وَالِإِخَادُ لَوْ نَزَلَ بِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ لَأُصْدِرْتُمْ ، فَوَجَدْتُ عَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ مَسْعُودٍ مِنْ ذَلِكَ الْإِخَادِ"

ويقول الزجاجي (٣٧٧ هـ): "ليس كل العرب يعرفون اللغة كلها، غريبها وواضحها، ومستعملها وشاذها، بل هم في ذلك طبقات يتفاوتون فيها، كما أنهم ليس كلهم يقول الشعر، ويعرف الأنساب كلها، وإنما هو في بعض دون بعض"

"وعلى الرغم من فهم معظم العرب لظاهر القرآن لنزوله بلسان عربي مبين إلا أن ما يخفى عليهم كانوا بحاجة ماسة إلى من يفسره لهم ويوضح الفاظه الغريبة ويقرب معانيه البعيدة إلى أذهانهم" فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين كان إذا اشكل عليه شيء من القرآن يسألون الرسول ليزيل لهم ذلك الاشكال ،وعلى هذا يمكن القول ان البدايات الأولى للتفسير كانت عن طريق سؤال الصحابة شخص النبي الكريم عن بعض الآيات التي اشكل فهمها عليهم فأزال لهم ذلك الاشكال "فمن هنا بذرت البذور الأولى لعلم التفسير"

والأمثلة كثيرة وثابتة تدل على أن الصحابة كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ذلك ما أخرجه الترمذي عن سيدنا علي عليه السلام قال سألت رسول الله عن يوم الحج فقال يوم النحر

واحيانا كان رسول الله يفسر بنفسه المعنى دون أن يوجه إليه سؤال من أحد ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) يقول "لا الله إلا الله" ، وهناك لون من التفسير هو التفسير بالوقائع وهو ما يعرف بعلم اسباب النزول

مصادر التفسير في عهد النبي الكريم هنالك مصدرين

١- القرآن الكريم لان القرآن يفسر بعضه بعضا

٢- السنة النبوية الشريفة

تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم للقران

المقدار الذى بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه:

اختلف العلماء في المقدار الذى بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه وانقسموا في ذلك الى فريقين :

١- الفريق الاول : فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه كل معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية (ت: ٧٢٨)

٢- ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبيّن لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء: الخوّبي والسيوطي (ت: ٩١١)

وقد استدلل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة من القرآن والسنة ،واقوال اهل العلم ،وناقش كل فريق ادلة الفريق الاخر ،ضربنا عنها صفحا للاختصار ،وذكرنا الراجح فقط

الراجح

قال الذهبي "والرأي الذي تميل إليه النفس - بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق في دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى - هو أن تتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبيّن كل معاني القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يُعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير، قال: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله " .وبدهي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسّر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسّر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذي لا يُعرفه أحد بجهله، لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسّر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجري مجرى الغيوب التي لم يُطلع الله عليها نبيه، وإنما فسّر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسّر لهم أيضاً كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث، وهو ما يعلمه العلماء يرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وما إلى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به .هذا.. وإنّ مما يؤيد أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسّر كل معاني

القرآن، أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص "

وقال الدكتور مجدي باسلوم "ان المقبول هو ان الرسول قام بدور عظيم في تفسير كتاب الله، ولكنه لم يفسره كله بطبيعة الحال، اذ لو قلنا بتفسير رسول الله القرآن كله لما كان هنالك داع الى تدبر آيات الله، ثم انه اذا كان الامر كذلك فلا قيمة للتفسيرات التي وضعها العلماء وحتى يوم الناس هذا، وهي تفسيرات فيها من الجديد ما لا يمكن انكاره ٠٠٠ ولو قلنا ان رسول لم يفسر من معاني القرآن الا القليل، لهضمنا رسول الله حقه في شخصه ودعوته ورسالته ٠٠٠ يتبين التوسط والاعتدال بين المذهبين " والواقع ان الرسول لم يلتحق بالرفيق الاعلى الا وفسر من القرآن ما احتاج اليه المسلمون من امور الحلال والحرام لان القرآن يشتمل على احكام لا تفهم على وجهها الصحيح الا بالسنة ولان فيه تشريعات لا يقدم على توضيحها الا هو صلى الله عليه وسلم كما في القرآن عمومات كثيرة تحتاج الى تخصيص "

لماذا لم يفسر رسول الله القرآن كاملا

لم يفسر رسول الله القرآن كاملا، انما فسر للصحابة ما احتاجوا الي تفسيره

وللجواب على هذا السؤال تقدم هذه الحكم والاسباب

١- لان معظم الفاظ ومعاني القرآن مفهومة، لا تحتاج الى تفسير والصحابة يعرفونها لانهم عرب فصحاء، ولذلك لم تدع الحاجة الى تفسيرها

٢- لبقى الباب مفتوحا امام المفسرين بعد عصر النبي ليقوموا بواجبهم في تفسير القرآن، ولتبقى حركة التفسير مستمرة في الاجيال اللاحقة، ولم فسر رسول الله القرآن كاملا لأغلق باب التفسير، ولما جرؤ أي عالم على تفسيره، حيث سيقال له لماذا تفسره وقد فسر رسول الله

٣- لضعف المستوى العلمي عند الصحابة، ولو فسرهم رسول الله بما حوت آياته من علوم ومعارف فقد لا يستوعبونها، وقد تكون محل استغراب بعضهم، والعلماء الذين جاؤوا بعد الصحابة قدموا بعض المضامين العلمية للآيات

٤- لثلا ينشغل الصحابة بالتفسير النظري عن تطبيق القرآن، وقد كانوا حريصين على تطبيق القرآن وتنفيذ احكامه، فكانوا مشغولين بمجال التنفيذ عن مجال التفسير

سبب التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

اهم مميزات التفسير في عهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

- ١- ان لجميع الاقوال التفسيرية التي شهدتها هذه المرحلة قوة النص المفسر
- ٢- ان تفسير القران في هذه المرحلة كان من عند الله تبارك وتعالى ،فهو سبحانه اول مبین ومفسر لكتابه ،لأنه الاعلم به وبمراد نفسه من غيره قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ،ويقول: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ،ويقول (فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ)
- ٣- ان تفسير القران في هذه المرحلة كان موكلا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ،وكان طبيعيا ان يفهم النبي القران جملة وتفصيلا ،فهم ظاهره وباطنه ومجمله ومفصله ومقيدته ومطلقه ،ومحكمه ومتشابهة ،وخاصه وعامه ،وامره ونهييه ،وغريبه ومشكله و سائر ما يتعلق بالأحكام والاعتقاد والتكاليف

منهج النبي الكريم في تفسير القران

يمكن لنا ان نبين المنهجية التي سلكها النبي الكريم في تفسيره للقران من خلال النقاط الآتية

١- سنة مفصلة ومبينة لمجمل القران الكريم

بعض الاوامر والتكاليف جاءت في القران مجملة ،لم تبين ولم تفصل في كفييتها وشروطها واركانها ،فجاءت السنة وبينت ذلك وفصلته ووضحته

مثال على ذلك :فقد امر الله المؤمنين بإقامة الصلاة ،واخبر انها موقوته محددة ،فقال تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) ،والسنة القولية والفعلية لرسول الله بينت ذلك الاجال القرآني ،فمنها عرفنا مواقيت الصلاة وركعاتها وشروطها وسننها وآدابها ومبطلاتها ومكروهاتها ،فقال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره للفظ الصلاة المجمل فقال «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»

مثال اخر الزكاة ففي القران امر مجمل بإيتاء الزكاة ، كما في قوله تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) ، وبينت السنة هذا الامر المجمل ، حيث عرفنا الاصناف التي تجب فيها الزكاة ، ومقدار الزكاة المفروضة ، وشروط وجوبها

وكذلك الحج قال تعالى : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} ، من غير ان يبين الله تعالى كيفية الحج وبيان اركانه ومناسكه ، "وبينت السنة القولية والفعلية هذا الاجمال ، حيث بين رسول الله اركان الحج وواجباته ومبطلاته ، وكيفية اداء المناسك ، من الاحرام والطواف والسعي والصعود الى عرفات والنزول الى المزدلفة ، والاقامة في منى ايام التشريق ، ورمي الجمار وكيفية التحلل وذبح الهدى وغير ذلك " ، وقد بين النبي الكريم ذلك فقال صلى الله عليه وسلم " حُدُّوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ "

٢- تقييده للمطلق

لقد بين الله تعالى من يجرم التزويج بين من الاقارب فقال تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) فهذا النص مطلق قيد بقوله واحل لكم ما وراء ذلكم فقال صلى الله عليه وسلم مقيدا هذا الاطلاق "لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة اخيها ولا على ابنة اختها فانكم ان فعلتم ذلك قطعتم ارحامكم "

٣- تخصيصه للعام

قال تعالى : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ) النص عام خصص بقوله صلى الله عليه وسلم "ليس للقاتل ميراث "

٤- تنبيه للغريب قال تعالى : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) فقد بين النبي الكريم الغريب في قوله تعالى (السائحون) فقال «السَّائِحُونَ الصَّائِمُونَ»

٥- توضيحه للمشكل فقد فسر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ما اشكل على عدي بن حاتم في معرفة الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر

٦- تفسيره البياني من امثلة ذلك قول تعالى : (كَاذِبًا لِّئَلَّا تُكْفِرُوا بِالَّذِي كَفَرْتُمْ بِهُ) ، قَالَ: صَفَاؤُهُنَّ كَصَفَاءِ الذَّرِّ الَّذِي لَمْ تَمَسَّهُ الْأَيْدِي

٧- تفسيره لألفاظ قرآنية استعملت في معنى اسلامي

ومن ذلك لفظ القنوت الذي كان يفسره العرب بأنه الخشوع ولكن الرسول جعل من معانيه السكوت

المرحلة الثانية: مرحلة التفسير في عهد الصحابة واهل البيت عليهم السلام

ولما انتقل النبي الكريم الى الرفيق الاعلى نهض من بعده لتحمل عبء الدعوة ونشر الدين تلاميذه من الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين فهم "أفقه الأمة وأبر الأمة قلوبا وأعمقهم وأقلهم تكلفا وأصحهم قصودا وأكملهم فطرة وأتمهم إدراكا وأصفاهم أذهانا الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل فهموا مقاصد الرسول فنسبة آرائهم وعلوهم وقصودهم إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كنسبتهم إلى صحبته "

وبطبيعة الحال لم يكن الصحابة في درجة واحدة في فهم اللغة وادراك اسرارها ،ومن هنا لم يكن الصحابة في درجة واحدة لفهم معاني القرآن " بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها"

فالصحابة رضي الله تعالى عنهم اجمعين يتفاوت في فهم القرآن، بين واحد وآخر. ربما أحد الصحابة يفهم من الآية مالا يحظر ببال الآخرين منهم. وقد يكون الآية الواحدة في نظر أحد الصحابة في أشد الغموض ولكن عند الآخرين في غاية الوضوح

والامثلة الدالة على تفاوت الصحابة في فهم الفاظ القرآن الكريم كثيرة منها

١- ما أخرجه أبو عبيدة (ت:٢٢٤) في الفضائل عن أنس: "أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةٌ وَأَبًا} ، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر" وفي رواية قال فما الأب ثم قال ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا قال الزركشي (ت:٧٩٤) معلقا على ما تقدم"

وما ذاك بجهل منها لمعنى الأب وإنما يحتمل والله أعلم أن الأب من الألفاظ المشتركة في لغتها أو في لغات فحشيا إن فسراه بمعنى من معانيه أن يكون المراد غيره ولهذا اختلف المفسرون في معنى الأب على سبعة أقوال فقليل ما ترعاه البهائم وأما ما يأكله الآدمي فالحصيد والثاني التبن خاصة والثالث كل ما نبت على وجه الأرض والرابع ما سوى الفاكهة والخامس الثمار الرطبة وفيه بعد لأن الفاكهة تدخل في الثمار الرطبة ولا يقال أفردت للتفصيل إذ لو أريد ذلك لتأخر ذكرها نحو فاكهة ونخل ورمان والسادس أن رطب الثمار هو الفاكهة ويابسها هو الأب والسابع أنه للأنعام كالفاكهة للناس ويحتمل قول عمر غير ما سبق وجهين أحدهما أن يكون خفي عليه معناه وإن شهر كما خفي على ابن عباس معنى فاطر السموات والثاني تخويف غيره من التعرض للتفسير بما لا يعلم كما كان يقول أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم يريد الاحتراز فإن من احترز قلت روايته "

٢- وما روى من أن عمر كان على المنبر فقراً: {أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} ، ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كَمَا تَخَوَّفَ عُوْدَ النَّبْعَةِ السَّفِينُ

٣- وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "كنت لا أدري ما {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ} حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها" وعدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: {وَكُلُّوْا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} ، وبلغ من أمره أن أخذ عقلاً أبيض وعقلاً أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليها فلم يستبينها، فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه، فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد. الحق أن الصحابة كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدّم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملياً بغريبها، ومنهم من كان يلزم النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً"

٤- وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئاً ، وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال لا والله ما أدري ما { وحنانا }

٥- وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال قال ابن عباس ما كنت أدري ما قوله (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) حتى سمعت قول بنت ذي يزن تعال أفاتحك تقول تعال أخاصمك ، وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم

هذا وقد بدأ الصحابة شارعين في تفسير القرآن على تخوف وتخرج بعد وفاة الرسول معتمدين في تفسيرهم على القرآن نفسه، وعلى تفسير النبي، والاجتهاد والاستنباط، أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى قال الدكتور محمد حسين الذهبي "هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة في تعرف بعض معاني القرآن، وليس هذا عملاً ألياً لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبير والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة"

مميزات التفسير في عصر الصحابة

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولاً: لم يُفسَّر القرآن جميعه، وإنما فُسِّر بعض منه، وهو ما غمض فهمه وهذا الغموض كان يزداد كلما بُعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم

ثانياً: قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه

ثالثاً: كانوا كثيراً ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلاً

رابعاً: الاختصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم: {عَبْرٌ مُتَجَانِفٌ لِإِثْمٍ} .. أي غير متعرض لمعصية

خامساً: ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعموم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله، نظراً لاتحادهم في العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبي لم يبق إلا بعد عصر الصحابة رضی الله عنهم.

سادساً: لم يَدُون شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني. نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير في مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التي نزل بها من عند الله تعالى.

سابعاً: اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وفرعاً من فروعه، ولم يتخذ التفسير له شكلاً منظماً، بل كانت هذه التفسيرات تُروى منتورة لآيات متفرقة، كما كان الشأن في رواية الحديث، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد، بجانب حديث ميراث، بجانب حديث في تفسير آية ... وهكذا.

وليس المعارض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصح نسبته إليه، بل جمعه الفيروزآبادي ونسبه إليه، معتمداً في ذلك على رواية واهية، هي رواية محمد بن مروان السدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس وهذه هي سلسلة الكذب كما قيل

المرحلة الثالثة: مرحلة التفسير في عهد التابعين

لما امتدت الفتوحات الإسلامية، واتسعت رقعتها بفتح الشام ومصر والعراق وفارس، تفرق الصحابة ولم يستقروا في بلد واحد بل توزعوا في البلاد شرقاً وغرباً فتحلق حولهم كبار التابعين يتلقون أقوالهم ويقتبسون العلم عنهم فانسع الخلاف في معاني القرآن بسبب بعدهم عن عهد الرسول، ولاختلاطهم باهل البلاد المفتوحة

مصادر التفسير عند التابعين

قال الذهبي " وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة"

المفسرون من التابعين:

وقد اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون، من أعيانهم: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم كثيرون

ابرز مظاهر التجديد في عصر التابعين

يمكن لنا ان نتلمس مظاهر التجديد في هذا العصر وذلك من خلال بروز مدارس التفسير

أولاً: مدرسة التفسير بمكة قيامها على ابن عباس (ت:٦٨) أشهر رجالها سعيد بن جبير ت(٩٥)، ومجاهد وكانت وفاته بمكة وهو ساجد، سنة (١٠٤)، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني كان طاووس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فانفق موته بمكة سنة (١٠٦)، وعطاء بن أبي رباح وتوفي سنة (١١٤هـ) على أرحم الأقوال

ثانياً: مدرسة التفسير بالمدينة قيامها على أبي بن كعب: أشهر رجالها: ثلاثة، هم: زيد بن أسلم وكانت وفاته سنة (١٣٦)، وأبو العالية وكانت وفاته سنة (٩٠)، ومحمد بن كعب القرظي وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة (١١٨)، وهو ابن ثمان وسبعين سنة

ثالثاً: مدرسة التفسير بالعراق قيامها على ابن مسعود: أشهر رجالها:

علقمة بن قيس (ت: ٦١) وعمره تسعين سنة، ومسروق (ت:٦٣)، والأسود بن يزيد (ت:٧٤)، ومرة الهمداني (ت:٧٦)، وعامر الشعبي (ت:١٠٩)، والحسن البصري (ت:١١٠)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت:١١٧)

ولما برز فجر القرن الثاني ابتداء عصر تدوين العلوم بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، فانطلق العلماء يجوبون الاقطار ويطوفون الامصار يجمعون احاديث النبي الكريم وقد صحب هذه الحركة تدوين التفسير فكان التفسير بجانب الحديث

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالميزات الآتية:

أولاً: دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، وذلك كثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام

ثانياً: ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية، إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليها طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون - بوجه خاص - بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبي، والعراقيون عن ابن مسعود... وهكذا.

ثالثاً: ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلاً قتادة بن دعامة السدوسي يُنسب إلى الخوض في القضاء والقدر ويُتهم بأنه قدري

رابعاً: كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين

خامساً: دون التفسير وصنف فيه وظهرت تفاسير شاملة